التطور الحيّ في اللغة العربية

للأستاذ: عبد الحق فاضل

« فى العدد الثالث من مجلة «اللسان العربى» كنا أعطينا لمحة من هذه المحاضرة القيمة التى تفضل أستاذنا الكبير بالقائها فى كلية الآداب بالرباط فى 1965/5/13 وبقاعة الحفلات البلدية بالدار البيضاء، فى 1965/5/21 استجابة لدعوة اللجنتين الثقافيتين المحليتين التابعتين للمكتب الدائم لتنسيق التعريب، وفى أثناء حديثنا عنها كنا واعدنا القراء بتقديمها اليهم كاملة فى هذا العدد ووفاء بالوعد وافادة للقراء الكرام يسرنا أن ننشرها فيما يلى : »

اللسان العربى

ان كان فى الناس اليوم من يجد سبيلا الى انكار تطور الانسان وصعوده فى سلم الارتقاء من حيوان أدنى يسير على أربع قوائم الى حيوان أعلى يسير على أربع عجلات ، فلست أرى لاحد سبيلا الى انكار تطور اللغات من البسيط الى المركب ، ومن دور البدائية والبداوة الى دور الحضارة والثقافة . ذلك اننا نرى بأعيننا تطور اللغة فى جيلنا هذا فى كل قطر من أقطارنا العربية ، كما رأى أبناء كل جيل فى كل بلد من بلاد الناس كيف ارتقت لغتهم بارتقائهم أو تردت بترديهم . وما من حدث اجتماعى أو نهضة علمية أو سياسية الا ويصحبها تطور فى اللغة فى المبانى او المعانى ، او فى كليهما جميعا . أعنى فى احداث الفاظ جديدة لبعض المعانى أو احداث معان جديدة لبعض الالفاظ ، او فى ذلك كله . وما من أحد على شىء من الالمام بتاريخ العرب وآدابهم يجهل ما أحدث الاسلام مثلا من ثورة لغوية الى جانب الثورة الدينية والاجتماعية والفكرية ، وما أجد من مصطلحات وغير من مفاهيم تصرفات وكلمات . وحسبنا أن نلاحظ ما طرأ على اللغة العربية فى مختلف أقطارها من تطور الى الاسوا فى عهود الحكم الاجنبى ، والى الاحسن منذ بدأت عهود الاستقلال فى كل منها .

وأود الآن أن أتحدث عن جانب صغير من جوانب التطور الحركى الحى الذى عاشته اللغة العربية وهى فيما يبدو أعظم أداة تعبيرية أبدعها العقل البشرى . سننظر الى هذا التطور من زاوية واحدة ضيقة ، بل سنفتح كوة صغيرة نطل منها على قطاع محدود نراقب فيه حركة هذا التطور ، لندرس نماذج منه من خلال **أربطة البهائم العربية فى لغتنا الثقافية والاجتماعية** . وأستميحكم صفحا ان كانت البهائم وأربطتها لا تروق لكم مادة للحديث . ان الذى يهون المشكلة علينا ـ أعنى عليكم ـ هو أننا سنتناول فى حديثنا الجانب الثقافى على الاغلب من هذه الاربطة البهيمية ، فان لها يشهد الحق لجانبا ثقافيا شديد الغرابة كثير المتعة والطرافة ، كالذى سنرى بعد قليل . فعسى أن يكون فى هذا ترضية لكم وتعويض من خيبة الامل التى لعلكم أحسستم بها عند سماعكم نبأ الاربطة والبهائم ، اذا كنتم قد أملتم أن أتحدث اليكم عما هو أبهج من هذا وأجل شأنا . والواقع أن البهائم والاربطة موجودة ضمنا فى عنوان حديثنا ، اذ كيف يمكن البحث فى **التطور** دون البدء بالخسيس من الاشياء ؟ وكما ان الكلام على تطور الانسان لا بد ان يجر الى ذكر القرود وأشباهها من بنى الحيوان لا بد أن يدعو الكلام على تطور اللغة الى ذكر البسيط وربما التافه المزدرى من البدايات ، من الاشياء المتصلة ببنى

الانسان . ولئن كانت هذه الاشياء تافهة مزدراة عندنا اليوم فما كانت كذلك عند آبائنا الذين تطورنا نحن منهم كما تطورت لغتنا من لغتهم ، وتبدلت بيوتنا من خيامهم ، وسيارتنا من بعيرهم .

اننا نعلم ان الدواب من خيل وماشية وابل كانت أهم ما يملك الاعرابى من ثروة ، فمن الطبيعى أن يكون لاسمائها وصفاتها وحالاتها وما يتصل بها من صفات وأدوات أثر كبير فى لغته ، وأن يستعير الالفاظ والمعانى المتصلة بهذه الاشياء والدواب لصنع ألفاظ ومعان أخرى يتسع مداها فيشمل بنى الانسان (كالذى تجلى فى بحث سابق لنا عنوانه « آثار حيوانية فى اللغة العربية») (1)

وان من أهم الادوات الملازمة للدواب هى **(القيود)** التى توثق بها فتمنعها من التسيب والشرود . وقد استرعى انتباهى احتفاء القوم بهذه **(القيود والاربطة والحبال)** وكثرة اشتقاقهم الاوصاف والمعانى منها ، **ولا سيما المعانى والاوصاف الراقية عامة والثقافية خاصة .**

المعقولات

ومعروف أن الناقة كانت عند العربى أثمن شىء فى متاعه وانفعه قط . لذلك كان ضياعها كارثة اذا نزلت بساحته أثرت فى معظم مناحى حياته .. لا يعود يشرب لبنها اذا جاع أو ظمىء ، ولا يمتطى سنامها اذا قطع مفازة لعمل او سفر ، ولا يحمل متاعه على صهوتها اذا ظعن انتجاعا لكلا او ابتاءا على ضيم . وان كانت عبادة البقرة تبررها للهنود فوائد تغدقها عليهم فان فوائد الناقة للاعراب ومناقبها لايكاد يحصيها من يعددها. فالناقة اولى بالعبادة عند العرب اذن من البقرة عند اخوانهم الهنود ، لو كانت فوائد الحيوان تبرر عبادته .

لهذا كانت المحافظة على الناقة من أول واجبات البدوى .. وكانت أيسر طريقة لاضاعتها هى أن يتركها هملا وينصرف عنها .. يدخل خيمته أو يمضى فى شأن له ، وما هى الا هنيهة حتى يناغيها بعير الجيران فتقبل عليه ، أو يجذبها مرأى نبتة شائكة من بعيد ، أو يستهويها منظر البيداء فتلقى بنفسها فى عبابها رغبة فى التمشى او بحثا عن المغامرات . واذا بصاحبها البدوى يعود فلا يجدها .

وأسهل طريقة للتفادى من هذه النكبة هى أن ينيخ ناقته الغالية ، فاذا هى بركت وانثنت ركبتها ، ربطها ـ ساقا الى عضد ـ بقطعة حبل .

وكان هذا العمل البسيط ـ ربط الناقة ـ يعد عند العرب دليل الفطنة وحدة الذكاء .. لسبب معقول، هو أن اهماله دليل الحمق والجهالة الفارطة ، حتى صاروا يعدون الربط هو الحكمة بعينها ، من باب الحقيقة لا الاستعارة والمجاز . ولعلهم قالوا اول الامر : « فلان احمق ، لا يربط ناقته » ، ثم قالوا : « علان حازم ، يربط ناقته » . وانما قدمت ذكر اهمال الربط لانه ادل على فرط الغباء من عمل الربط على فرط الذكاء . ثم كان منهم أن أستقطوا ذكر الناقة استغناءا عنه لشهرتها ورسوخها فى الاذهان ، فقالوا : « فلان أحمق لا يربط ، وعلان حازم يربط » . وصاروا بعد ذلك اذا اردوا أن يعرفوا مبلغ ما اوتى أحدهم من عقل تساءلوا : «هل يربط ؟» . وان قالوا : « ان الغلام يربط » فقد بلغ عندهم مبلغ الرجال تدبيرا وفهما . واذا أرادوا الثناء على ادراك الرجل وسداد رأيه قالوا : « انه رابط » !

وكأنى بك تستغرب منى هذا المقال ولا تريد أن تصدقه . وما أنا بحاجة للبرهنة عليه الى الكثير من الايضاح ، فان مجرد ذكر اللفظة التى استعملها العرب الاقدمون لربط ركبة الناقة يكفى لاقناعك بصحة ما أقول ، لانهم فى الحقيقة لم يستعملوا لفظة (يربط) وانما كانوا يستعملون لهذا الغرض لفظة **(يعقل)** من وزن (يربط) ومعناها . وكانوا يسمون قطعة الحبل التى يقيدون بها الناقة **(العقال)** من وزن (الرباط) ومعناه ايضا ، والفعل هو (العقل) . فان تساءلوا عن مبلغ ما اوتى الرجل من سداد الرأى كانوا يقولون : هل **يعقل** ؟ (اى هل يربط ؟) وان اردوا الثناء على حزمه وجودة فهمه قالوا : **انه عاقل !**

وبعد ان ثبت هذا المعنى على مر العصور اشتقوا منه : **التعقل ، والمعقول ، وعلوم المعقولات** ، اى المربوطات !

أفرأيتم كيف تطور ذلك العقال ، ذلك الحبل الحقير ، الذى أحسبه أثار اشمئزازكم اول الامر ، بل كيف قفز هذه القفزة الجنونية .. من صميم البداوة الى قدس أقداس الحضارة من ثقافة وفلسفة ؟

---

(1) **مجلة « المعرفة » بدمشق . عدد تشرين الاول (اكتوبر) 1962** .

وكيف أصبح **الربط** يعني **(العقل)** الذي هو أروع شيء أنجبته الحياة على هذا الكوكب ؟ فعل ذلك الحبل .. الحبيل .. كل هذا بقفزة تبدو للنظرة العابرة يسيرة .. من رجل الناقة الى رأس الانسان ، ولكنها مسافة أعظم بكثير من المسافة بين الناقة والطيارة ، بل الصاروخ .

ان المواضيع اللغوية جافة في العادة يصدف عنها القراء ، بل ينفرون منها . ولكن فيها مع ذلك جوانب ممتعة مسلية جدا ومفيدة جدا ، اذا أحسن استخراجها وعرضها أقبل عليها المثقفون ، وحتى أنصاف المثقفين، اقبالهم على قصص الجرائم والغراميات . ولشد ما أتمنى لو أستطيع أن أحمل نفرا من أبناء الجيل الجديد على الاهتمام بهذه اللغة العربية التي صارت تتكشف لي كأنها قارة شاسعة الابعاد كثيرة المجاهل ، تنتظر فريقا من الرواد الجدد المتحمسين يجوبون أقطارها ويستخرجون كنوزها الكثيرة ، ليجدوا انها بحق أعجوبة اللغات .

الكتابة :

ومن أسمى ابداعات العقل البشري ان لم تكن اسماها طرا : **الكتابة** ، وهي العمود الفقري لكل تراث الانسان من علوم وآداب وأفكار وفلسفات . فهل تعلمون ما هو أصل معنى كلمة **(الكتابة)** ؟

يظهر ان العرب ما كانوا يعدون القيد متاعا جليل الخطر في **(عقل الناقة)** وحسب ، بل في مختلف مناحي حياتهم الاجتماعية المشتتة ، فعمدوا الى الاربطة الاخرى فابتكروا منها معاني أخرى . ولم يكتفوا بربط الابل وغيرها من الدواب بل **(ربطوا المعاني)** أيضا خوفا عليها من الشرود ، ومن ثم الضياع .

وها هي **(الكتابة)** كان معناها **(التقييد)** واذا اردنا الدقة فهو تقييد اليدين مع الكتفين . ويظهر من هذا ان أصل الكلمة هو (الكتف) ، أي ان قولهم **(كتبت الرجل)** كان متطورا من قولهم **(كتفته)** . والواقع أن بعض ضروب الكتابة يشبه التقييد ، فان تدوين المذكرات مثلا ليس الا **(تقييدا)** من طراز خاص . وما التصوير الشمسي الا طراز آخر من التقييد .. تقييد الاضواء والظلال ، ولو بغير كتاف أو عقال .

ومن طريف ما جاء في هذا وفسر تطور معنى التقييد الى معنى الكتابة اوضح تفسير ، حديث رواه السيوطي في «المزهر» هو : «**قيدوا العلم بالكتابة**» ! ولو أعدنا معنى الكتابة الى أصله اللغوي الاول لصار معنى الحديث : **قيدوا العلم بالتقييد** . فهو توكيد لمعنى التقييد ، كالذي ترون .

ولئن كانت بعض القيود مما ذكرنا أو سنذكر ، ما زالت تحتفظ بمعانيها الربطية الاصلية بالاضافة الى معانيها الثقافية أو الاجتماعية المكتسبة ، فان الكتابة فقدت معنى الربط ولم يعد أحد يستعملها الا **بمعنى التدوين** .. حتى ان اكثر المعاجم ، ولا سيما الموجزة منها ، لا تذكر الكتابة الا بهذا المعنى الاخير المتحضر .

والذي يظهر من تقييد الكتفين ان الكتاب والكتاف من قيود الانسان خاصة . ولا ندري ان كانوا عمموه على الحيوان أيضا من باب المجاز كما عمموا الكثير من أشياء الحيوان على الانسان . ولكن حتى اذا افترضنا أنه لم يستعمل الا للانسان ، فلا نراه مع ذلك يخرج عن نطاق بحثنا الخاص **بأربطة البهائم** ، باعتباره ـ أي الكتاف ، أو الكتاب ـ **من أربطة البهيمة الناطقة** .

ومن مادة (الكتابة) بمعنى التدوين اشتقوا : **الكتاب والكتاب ، والكاتب ، والمكتبة والاستكتاب والمكتوب** ..

وأود هنا أن أضيف كلمة جديدة أرانا بحاجة اليها هي **(الاكتوبة)** وجمعها (الاكاتيب) على غرار الاكذوبة والاكاذيب .. وأقترح أن نستعملها بمعنى **(المكتوبات)** الايضاحية أو الاعلانية التي تصدرها الشركات عن بضائعها أو الاحزاب عن توجيهاتها ، او ما هو بسبيل ذلك مما يسمى بالانكليزية والفرنسية literature أي **(الادب)** . وقد **(تقيد)** مترجمونا الملهوجون بهذا التعبير الاوربي المحرف عن موضعه فترجموه (أدبيات) . وصرنا نراهم يقولون «**أدبيات الشركة**» مثلا . ولكم سأءني في القراءة هذا التشويه لكلمة (الادب) ، ولا سيما أن للادب في العربية معناه السامي الايحائي الذي **(يربط)** الفن بالاخلاق في **(وثاق)** معنوي نبيل ، واذا بقوم يهبطون بهذه الكلمة الرائعة الى مستوى الاعلان التجاري . وانما اقترحت كلمة **(الاكتوبة)** لانها محايدة لا محاباة فيها ولا تحامل ، تعنى بالدقة (الشيء المكتوب) دون مدح له أو قدح فيه . وعسى أن يشايعني السامعون الكرام في استعمال كلمة (الاكتوبة) في هذا المعنى ونحوه تضامنا منا جميعا لانقاذ كلمة **(الادب)** من الوهدة التي أوقعت فيها .

ان كلمة literature الانكليزية مقتبسة

من الفرنسية وأصلها من litera او littera اللاتينية وتعنى **الحرف الهجائي** ، فاقتبسها **الفرنسيون** بصيغة lettre وصارت تعنى عندهم الحرف الهجائي أو الرسالة المكتوبة ، ثم صاغوا منها littérature بمعنى الادب .

ولعل مما لا بأس بذكره هنا هو أن الفرنسيين يسمون (الاديب) : homme de lettres والانكليز يسمونه : man of letters اى (رجل الحروف) في كلتا اللغتين ، ولو اطلق هذا التعبير في العربية ، أو أية لغة أخرى ، دون معرفة معناه الاصطلاحي ، لظن السامع ان المقصود هو (منضد الحروف) أى العامل الذى يصف الحروف المطبعية ! ولما كانت كلمة lettre و letter تعنى الرسالة أيضا بالاضافة الى الحرف ، ففى أحسن الاحتمالات يظن السامع ان المقصود (رجل الرسائل) . وهذا أيضا لايدل على (الاديب) ، وانما يوهم ان المراد هو (العرضحالى) الذى يكتب الرسائل بأجرة للقرويين والاميين !

وما نورد هذا تبجحا بلغتنا ، ولكن بعض الاوربيين من أمثال العلامة اللغوى الفرنسى (رينان) قالوا بتخلف العقلية السامية عن الآرية مستشهدين ببعض المظاهر اللغوية ، وشايعهم على ذلك حتى بعض العرب . فهذا الذى ذكرناه لا يؤيد هذا المزعم ، ومن الطبيعى أننا لا نتخذه ولا نتخذ حتى تخلف الاوربيين في التحضر قرونا طويلة بعد اخوانهم الساميين ـ دليلا على تخلف العقلية الآرية ، وكيف يحق لى أن انتقد اشتقاقهم معنى (الادب) من كلمة (الحرف) وانا اتحدث عن اشتقاق العرب معنى (العقل) من (العقال) و (الكتابة) من (الكتاف) ؟

القيد (وزن الصيد) :

وما كف العرب عن استعمال القيود بمعنى الكتابة ، بل عادوا اليها فأخذ المتأخرون منهم كلمة **(القيد)** نفسها واستعملوها بمعنى الكتابة أيضا فقالوا : **(قيد الاسماء)** اى سجلها ، و **(قيد الحساب)** أى رقمه . واستعملوا **(القيد)** بمعنى السجل وجمعوه على **(قيود)** أى سجلات .

و **(القيد الاحترازى)** يعرفه الحقوقيون ، ولكنه خارج عن معنى (الكتابة) التى نحن بصددها .

الاثبات (وزان الاحسان) :

وانظروا ، أيها الاخوان والاخوات ، الى **(الثبات)** ـ كالفئات ـ وهو السير يشد به الرحل على البعير . فهل تعلمون ما ذا جرى له على ألسنة العرب ؟ لقد اشتقوا منه أيضا معانى ثقافية لها خطورتها كما سنرى . اشتقوا منه (الاثبات) بمعنى التدوين أى الكتابة أيضا كما جاء في الآية : (يمحو الله ما يشاء و **يثبت** وعنده أم **الكتاب**) . كذلك استعملوه بمعنى البرهنة على النظرية او الرأى . ويقال هذا **ثابت بالدليل**، ثم اشتقوا **(الثبت)** بمعنى الحجة والبرهان ، أو بمعنى الرجل الثقة يحتج بكلامه فى علم او رواية ، أو بمعنى السجل ، أو الوثيقة . وفى ايران يسمون تصديق الوثائق عند الكاتب العدل **(ثبت اسناد)** اى توثيق المستندات ، ولكنهم ينطقون الثاء سينا على طريقتهم فيقولون (سبت اسناد) .

و (التثبت) يعنى التأكد ، و (الثابت) الوكيد . و **(المثبت)** ضد المنفى ، وهذا كله من **(ثبات الدابة)** .. فما أجل خطره . وللكلمة معان أخرى لا تدخل فى بحثنا المقتصر على الالفاظ الثقافية ..

الشكل (كالشمل) :

ومضى زمان .. وتطورت الكتابة العربية ، وخالط العرب الاعاجم فضعفت ألسنتهم واضطربت عليهم قراءة القرآن ، فارادوا ضبط الكتابة بحيث لا يخطىء قارىء فى قراءتها على وجهها الصحيح ، فوضعوا لها علامات تدل على الفتح والكسر والضم والجزم ، والتمسوا كلمة يسمون بها هذه العلامات الكتابية الضابطة ، فنثروا كنانتهم بين أيديهم واستعرضوا مفردات القيود والاربطة فى لغتهم فاختاروا من بينها **(الشكل)** ـ وزان العقل ـ وهو رباط الدابة أيضا يشدون به قوائمها ، فقالوا : **(شكلت الكتابة)** بالعلامات فهى **(مشكولة)** بمعنى ضبطتها فهى مضبوطة، كمثل قولهم : **(شكلت الدابة)** بالقيد ، فهى **(مشكولة)**. واذا أعدنا الكتابة ثانية الى معناها الاصلى كان قولنا (شكلت الكتابة) يعنى (قيدت التقييد) .

وغريب ان نجد فى الانكليزية نفس الكلمة تستعمل بنفس معناها العربى (shackle) أى القيد . وهى فى عقيدتى مقتبسة من العربية . ولكن المسكينة لم تتثقف فى الانكليزية ولم تتحضر او تتطور ، بل لبثت قابعة فى حضيض معناها البدائى الاول ، أى **(قيد الدابة)** .. على حين ارتفعت عند العرب الى الاوج الثقافى الذى رأينا .

الوثاق (وزان الوفاء أو النفاق) :

واعاد العربي النظر الى كنانته المنثورة بين يديه فاعجبته من بين القيود كلمة **(الوثاق)** ، وهو كذلك قطعة حبل او نحوه ، لربط الدابة ، فصنع منه طرفا ثقافية أخرى . اشتق منها مثلا **(الثقة)** وأحد معانيها الجزم بالرأى واليقين فيه . وثانيها الاعتماد على الشيء أو الشخص ، والاطمئنان اليه . وثالثها الرجل المتخصص في علم يعتبر كلامه حجة فيه ، كمثل قولهم : **(فلان ثقة في التاريخ)** أى ثبت فيه .

واشتقوا منها كذلك **(الوثيقة)** و **(الميثاق)** أى العهد ـ او المعاهدة باصطلاح اليوم ومنها **(المواثيق السياسية)** .

العنوان (وزان الثعبان) :

عنوان الكتاب : اسمه ، ويقال **(عنونت الكتاب)** بمعنى سميته . ونحن نقصد اليوم بعنوان الشخص محل اقامته . وتقول **(عنونت الرسالة)** بمعنى كتبت عليها **(عنوان)** المرء المرسلة اليه .

ويظهر أن أصل العنوان من (العنان) ـ وزان الحصان ـ وهو الرسن ، بدليل انهم قالوا **(عنن اللجام)** بمعنى جعل له عنانا ، كما قالوا **(عنن الكتاب)** بمعنى جعل له عنوانا .

الحنكة (وزان العقدة) :

هي الحكمة والتمرس بالتجارب . و **(المحنك)** هو الحكيم المجرب . فهل تدرون من أين جاءت هذه الكلمة الخطيرة ؟ انها من **(الحنك)** ـ زنة الامل ـ وهو الذقن ، ولكنه ذقن الدابة لا الانسان . ومنه اشتقوا **(الحناك)** ـ وزان الحصان ـ وهو الزناق ، من نفس الوزن ، أى **(رباط الحنك)** يوضع في فم الدابة . فالفرس المربوط **بالحناك** أقوم سيرا وآمن عاقبة لسيطرة الراكب عليه . وغدا **(التحنيك)** وسيلة لتدريب الدابة وتقويم سيرها ، فأصبحت **(التحنيك)** **المحنكة)** ـ أى المدربة على الحناك ـ أفضل من الدابة المهملة الهوجاء . ومن هذا اكتسب **(التحنيك)** معنى التهذيب ، فنقلوه الى العالم البشرى . وقديما قالت العرب : **(حنكت الصبي)** بمعنى هذبته ، دون وضع زناق في حنكه طبعا . ثم انتقل المعنى من الصغار الى الكبار ، ثم صار اكثر استعمال الكلمة لرجال الادارة والحكم ، فقيل : **السياسي المحنك .**

الحكمة

واليكم نموذجا من التطور الحي اغرب من هذا وأرقى درجة . **(الحكمة)** كلمة ثقافية جليلة ، معانيها معروفة . فهذه كلمة عصامية نشأت وارتفعت من أصل متواضع ، كأخواتها السابقات . أصلها من **تربطة** الدواب التي أخذتم ولا شك تقيمون لها الآن وزنها العادل . ان (الحكمة) جاءت من **(الحكمة)** ـ وزان **السمكة** ـ وهي جزء من لجام الفرس .. الجزء المحيط **بالحنك** من اللجام . قالوا ـ العرب الاقدمون ـ **(حكمت الفرس ، او احكمته)** ـ من باب ضربته وأدبته ـ بمعنى وضعت الحكمة في فمه . ووضعك الحكمة في فم الفرس يعني ـ كالتحنيك ـ سيطرتك عليه . ومن هنا صار **(الاحكام)**ـ وزان الاحسان ـ يعني التوثيق والاتقان ، وصار (الحكم) ـ وزان اللطف ـ يعني السيطرة ، و (الحاكم) يعني المسيطر والآمر والسلطان . ثم اشتق من هذه المادة (التحكم) وهو تكلف الحكم او التعسف فيه . وبعد أن ثبت هذا المعنى للحاكم اشتقوا منه المحاكمة ، فقالوا (حاكمت الرجل) بمعنى خاصمته الى الحاكم ، و (تحاكم الرجلان) اليه ، بمعنى تخاصما اليه ، (فحكم بينهما) اى اصدر **(حكمه)** فيهما . ومن هنا صار **(الحكم) يعني القضاء** أى الفصل بين (المتحاكمين) أيضا . ومن هنا اشتقت **(المحكمة)** وهي **دار (الحكم)** أو دار **(المحاكمة) أو (التحاكم) أو (الاحتكام)** . وصار (الحاكم) يعني القاضي. وهكذا أصبح للحاكم معنيان : احدهما الآمر المسيطر ، والثاني القاضي . والقاضي ـ غير القاضي الشرعي ـ يسمى في العراق **(الحاكم)** والجمع **(الحكام)** .

وبعد أن أخذت الكلمة معنى القضاء أصبح من السهل اشتقاق **(الحكم)** ـ وزان القلم ـ و **(التحكيم)** منها . كذلك أصبح للتحكيم نفس المعنيين . اى التسليط وطلب الرأى ، فقالوا مثلا : **(حكم الرجل عاطفته ، أو عقله ، في المسألة)** بمعنى سلط عاطفته عليها ، او عرضها على عقله للوصول الى رأى فيها .. وقالوا **(حكمناه في الخلاف)** بمعنى طلبنا حكمه فيه او جعلناه حكما فيه . واستعمل عرب الجاهلية **(الحكومة)** بمعنى (حكم الحكم) فقال شاعرهم :

(ما أنت **بالحكم** الترضى **حكومته**)

ولكننا لا نستعمل **(الحكومة)** الآن الا بمعناها السياسي المعروف .

ولما كان الناس انما (يحتكمون) الى ذى عقل وفطنة

فقد اصطبغ (الحكم) – وزان الشكر – بهاتين الخصلتين، أى العقل والفطنة بالاضافة الى معنييه السابقين : الامرة والقضاء . وقد جاء فى القرآن : «**وآتيناه الحكم صبيا**» أى آتيناه الحكمة ..

ومن (الحكم) بمعنى الحكمة اشتقوا **(الحكيم)** مثل اشتقاق الطبيب من الطب ، واللطيف من اللطف، والنبيل من النبل وبسبب ازدحام المعانى على كلمة (الحكم) اختصت لفظة الحكيم بمعنى الحكمة ، وبقيت (الحاكم) تعنى الآمر أو القاضى ولا تعنى الحكيم . خلافا للآمر والامير ، والفاضل والفضيل ، والجاهل والجهول .. التى تشترك كل واحدة منهما فى معنى صنوها ..

وقد كثر استعمال صيغة (الحكمة) لمعنى الحصافة والفطنة لانها ابين عن الغرض من لفظة (الحكم) المزدوجة المعنى ، التى كانت ما تزال تستعمل فى كلا المعنيين عند ظهور الاسلام كالذى رأينا من ورودها فى القرآن ، والتى قلما استعملت بمعنى الحكمة بعد ذلك .

وهكذا زال معنى الحصافة من (الحكم) والحصيف من (الحاكم) بدافع من الرغبة فى اجتناب اللبس ، فتخصص معناهما فى التسلط والقضاء ، كما زال معنى الامرة من (الحكمة) و (الحكيم) فاختص معناهما بالحصافة .

ولما كانت (المحاكمة) تتطلب مناقشة القضايا وتمحيصها فقد صارت هذه الكلمة تعنى بالاضافة الى ما تقدم نفاذ الفكر وسداد المنطق فقالوا : **(فلان قوى المحاكمة)** اى ثاقب البصيرة فى تمحيص المسائل العقلية ، دون أن يكون للامر علاقة بالقضاء بين المتحاكمين من الناس .

وفى العهد الاسلامى أطلقت (الحكمة) على الفلسفة وما هو بسبيلها من العقلانيات . ثم أطلقت (الحكمة) على الطب ، وسمى الطبيب **(حكيما)** . وظاهر ان سبب ذلك هو أن الكثيرين من **(الحكماء)** – أى الفلاسفة – زاولوا الطب على ذلك العهد مثل الكندى والخيام وغيرهما . ولا بأس أن نورد هنا مثلا كان شائعا فى العراق يوم كان الطبيب يسمى حكيما ، هو قولهم : **(لا سلط الله عليك حاكما ولا حكيما)** .. ولعل المثل مشهور هنا أيضا ، وفى أقطار عربية أخرى .

وهكذا تعددت مناحى تطور هذه الكلمة فصار لها نشاطها الخلاق فى ميادين السياسة والادارة والقضاء والفلسفة والطب بالاضافة الى معناها الثقافى العام . فهل تلومونني اذا انا صرفت شيئا من العناية الى درس هذه الاربطة البهيمية العبقرية للتعرف فيها على ضرب طريف من التطور الحى ؟

من الواضح أن **(الحكمة)** محرفة من **(الحنكة)** التى مر بنا الحديث عنها . وتأويل ذلك ان العرب قالت أول الامر : **(حنكت الفرس)** بمعنى وضعت **(الحناك)** – أى رباط **الحنك** – فى فمه .ثم حرفوا **(حنكته)** فصارت (حكمته) ، كما حرفوا الكثير من امثالها ، بقلب الحروف وابدالها . ودليلى على ذلك ان الحكمة – وزان السمكة – تعنى ما أحاط بحنك الفرس من اللجام كما قلنا قبل ، اى انها تعنى الحناك ، فكلتاهما من (الحنك) . وقد تطورت الكلمتان ، كلا على حدة ، فاشتقت من هذه (الحكمة) ومن تلك (الحنكة) .. على النحو الذى رأينا .

القرن (وزان القمر) :

وتلفت البدوى يمينا ويسارا يطلب قيدا جديدا ، فلمح فى قرن ثوره حبلا من مسد كان قد ربطه به الى قرن ثور آخر ، فقال فى سره : مالى لا اصنع عجبا فأخترع من هذا النوع الفريد من القيد كلمة اخرى عصرية حضارية ؟ ولكن بما ان (الحضارة والعصرية) لم يكن أوانهما قد آن فقد اكتفى بأن يبدأ هو المشروع ويترك للاجيال اللاحقة اتمامه وفق هواها وحاجتها .. شأنه فى ذلك شأن كل المخترعين – مخترع الآلة البخارية مثلا – فسمى ذلك الحبل فى قرن ثوره (القرن) – وزان البقر – ولكن هذه الكلمة بهذا المعنى توفيت منذ عهد بعيد لعدم حاجتنا اليها ، وما اكثر ما توفيت مخترعات خطيرة كانت نافعة فى أيامها ، ثم استجد ما هو أصلح منها فقضى عليها .

ثم ان صاحبنا البدوى سمى ذينك الثورين المربوطين من قرنيهما **(قرينين)** ، وسمى كلا منهما **(قرينا)** للآخر . ثم انه اطلق كلمة (القرينين) على كل دابتين مربوطتين معا ، فى نير مثلا ، سواء أكانتا مربوطتين من قرنيهما أم من أى مكانين آخرين من جسميهما ، وسواء أكانتا ثورين أم بغلين أم غير ذلكم .

وخلفته أجيال فأطلقت (القرين) على الصاحب والرفيق ، حيوانا كان أم انسانا .. حتى جاء يوم واذا شاعرهم يقول غير هياب :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن **قرينه**
فكل قرين **بالمقارن** يقتدى !

وهكذا أصبح الناس لا يأنف عظيمهم او صعلوكهم ان يسمي قرينا لمن يجانسه ويقارنه ـ أى **يجعل قرنه الى قرنه** ـ تشبيها لشخصه الكريم (بالثور الاول) المعهود .

وقد اشتق القدامى من مادة القرن **(الاقتران)** بمعنى الارتباط ، واشتقوا بعد ذلك **(القرينة)** بمعنى الدليل والبرهان باعتبار أن سؤالك عن القرين يقودك الى .. (وحاشاك ان تقاد) .. أعنى يدلك ، على قرينه ، فكذلك القرينة اذا رأيتها دلتك على الشيء المقترن بها ، فكانها علامة أو دليل على ذلك الشيء .

واستعملوا **(الاقتران)** بمعنى الازدواج ، فقالوا **(اقترن فلان بفلانة)** اى تزوجها . وسمى النكاح (القران) ـ وزان حصان ـ فقالوا (عقد قرانه عليها) .

و **(القرنة)** ـ وزان الهدنة ـ بلدة عراقية عند ملتقى دجلة بالفرات ، أى فى نقطة **(اقتران)** الرافدين. وأهل ديار الشام ، وكذلك أهل الموصل فى العراق ، يسمون الزاوية **(قرنة)** ، كما يسميها الانكليز (كورنر corner) وهى منها فيما يظهر .

وقد استعار المتأخرون **(المقارنة)** وكانت تعني المصاحبة ـ لمعنى مقايسة الشيئن والمفاضلة بينهما .. ومن ذلك **(الادب المقارن)** مثلا و (القانون المقارن) ..

ولم يكتف المتأخرون بذلك بل عمدوا الى هذه المادة الحيوانية (أى القرن ، وهو شيء بغيض فى بعض الاحول لدلالته عند الكثير من الاقوام على التفريط فى العرض) فصنعوا منها اداة للتبجيل والمداهنة ترضي غرور المرأة ولا يجد زوجها فى استعمالها غضاضة ، وتلك من غريب المفارقات . وصارت **(القرينة)** تقال ـ لا لسائر النساء من زوجات العامة ـ بل للزوجات الراقيات اللائى يستنكفن ويستنكف أزواجهن من تسميتهن (زوجات) كغيرهن من نساء السوقة ، فسموا الزوجة الراقية (قرينة) ! ..

العقال أيضا :

ولم أسمع أن سيدة غضبت لتشبيهها ـ أو أن سيدا غضب لتشبيه زوجته ، عفوا ، أعنى قرينته ـ بالبهيمة المربوطة من قرنها . واذا امتعض بعضهم وبعضهن من هذه التسمية فانما يمتعضون لرغبتهم فى تشبيهها بالناقة المربوطة من رجلها بدلا من البقرة المربوطة من قرنها ، لان ذلك فى زعمهم يرفع المراة فى المجتمع درجات . وانما يتم ذلك التشبيه المطلوب بتسميتها **(العقيلة)** !

وهذه الكلمة ايضا ليست من ابتكار المتأخرين ، فقد كان المتقدمون **يقصدون بالعقائل كرائم النساء** عامة . وها نحن نجد انفسنا قد عدنا الى الناقة وعقالها . **فالعقيلة فى الاصل الناقة الكريمة** ، وهى الناقة **المعقولة**، أى المربوطة . وفضل الناقة المربوطة على غيرها من الانيق ان صاحبها ينام مطمئن البال لا يخشى شرودها . ويبدو أن الكلمة أطلقت فيما بعد على **الناقة الهادئة** ولو لم تكن مربوطة ، لانها لا تسول لها الشقاوة أن تشرد فتترك صاحبها ملهوفا ينشدها هنا وهناك . وقد كان لهذه الحادثة ـ أى شرود الناقة ـ خطورتها الاجتماعية عند القوم ، كما قلنا ، لفداحتها الاقتصادية أولا ، ولكثرة وقوعها ثانيا .. فليس من السهل على العربي دائما أن يربط نوقه ولا سيما اذا كثر عددهن او عرضت له شواغل طارئة تعوقه عن ربطهن .

وعلى ذلك أصبح هذا الطراز من النياق الهادئات (غير الضالات المنشودات) يسمى بكرائم الابل ، لانها تمكث ـ فى مكانها الذى تركها فيه صاحبها ـ كأنها مربوطة بعقال . وطبيعى أن تعجبهم هذه الخصلة الطيبة المريحة اذا اتفق وجود مثلها فى النساء ، فأطلقوها على المرأة الحصان الرزان التى لا (تشرد) عن المكان ـ المكانة ـ التى يريدها رجلها ان تكون فيها وتلزمها ، فلا تجرى وراء هذا الرجل أو ذاك ، فتعذب رجلها بالبحث واضطراب البال .. وانما هى كالناقة المعقولة من ركبتها تلزم الحدود التى رسمها لها المجتمع لا تبرحها ولا تخرج عليها . ومن هنا كانت **(العقيلة)** تعد من **(كرائم الابل)** فى العالم البعيرى ومن **(كرائم النساء)** فى العالم البشرى . وهى فى عالم البشر من **(المثاليات الجنسية)** قد لا تكون لها قيمة اقتصادية كما فى عالم الابل .

واليوم أصبحت كلمة **(العقيلة)** مجرد اصطلاح يطلق على كل زوجة من العلية سواء أكانت **(شرودا)** أم لم تكن ، وسواء أكان عدم شرودها ناجما عن سجية فيها أم عن **(وثاق)** لا تستطيع أن تفصمه ، أم لانها بلغت من العمر ما بلغت فلم يعد بين الرجال من يطاردها .

واذا قيل فى الموصل (فلانة ربيطة) كان المقصود أنها عاجزة ، تشبيها لها بالنعجة المربوطة ، وهى اهانة تغضب لها فلانة تلك بطبيعة الحال . أما تشبيه أية سيدة بالناقة المربوطة فهو كما رأينا من آيات التبجيل .

الربط (وزان الرفع) :

ومن الانصاف أخيرا ألا ننسى كلمة **(الربط)**

وقديما اشتقوا منها (**المرابطة**) وهى المكوث فى المكان مثل (**مرابطة العسكر**) أى ملازمتـــه موضعا لا يبرحه ، لان العسكر يربط خيله فيه . واشتقوا منهـا كذلك (**الرباط**) ـ وزان الشهاب ـ وجمعها (الرباطات) وهى المعاهد الموقوفة لطلبة العلم والفقراء ، أى التـى حبست منفعتها عليهم . ولعله من هذا المعنى كان اسم (**الرباط**) **عاصمة المغرب العربى** ، ان لم تكن التسمية من «رباط الخيل» للعسكر أو «رباط الفتح» كما هـو الشائع . ونـــذكر بالمناسبة أن اسم (المربد) ـ سوق البصرة المشهورة ، وصنو عكاظ ـ انما يعنى (**المربط**)، فقد استعمل العرب الربد والربط بمعنى .

وقالوا (**الرابط**) بمعنى الراهب أو الزاهد او الحكيم الذى تنزه عن زخرف الحياة ، فكأنهم قصدو ـ على ما تقول المعاجم ـ انه ربط نفسه عـن الدنيا وملاذها . وأصح من هذا التأويل القاموسى فيما يخيـــل لى أن (**الرابط**) **مقلوبة من** (**الراهب**) مع ابدال ، وان الراهب ان كانت عربية فهى من الرهبة اى الخشوع لله . وشأن الرهبة شأن (التقوى) ، فكأنما قصدوا بالراهب التقى .

كذلك استعمل المحدثون مادة (**ربط**) فى معـان راقية أبعد ما تكون عن ربط الدواب . من ذلك (**روابط الصداقة**) بين الدول ، وكثيرا ما يقول ساسة العـالم انها (وطيدة متينة) عندما يقصدون عـــدم وجودها . ومنها ايضا (**الرابطة القلمية**) التى كان أسسها المرحوم جبران خليل جبـــران وزملاء له مـــن أدباء المهجـر فى أمريكـــا ..

وهذه كلها (**اربطة**) معنوية كما ترون . أما الاربطة المادية الشبيهة بمـــا للدواب فنذكـــر منها باعتزاز (**رباط الرقبة**) !..

العقدة (وزان العطلة) :

هذه ايضا من الحبليات . و (**عقدت الحبل**) تعني ربطت بعضه ببعضه . ولما كان الغرض من (**العقـــد**) هو وصل المقطوع وتوثيق المحلول فانهم حين استعاروه للمعنويات قالوا (**عقدت الامر**) ، بمعنى أحكمتـــه . و (**عقدت البيع**) بمعنى وثقته وأبرمته . ومن هنا صار (**التعاقد**) يعني التعاهد والتبايع ، ويطلق على كل اتفاق يتطلب ايجابا وقبولا ، مثل (عقد الايجار) و (وعقـد النكاح) . ومن هذه الاخيرة قالوا (**الفتاة المعقود عليها**) . وصارت (**العقود**) تعنى الصفقات والمقاولات .. ولنـدع (**عقود البناء**) و (**عقود اللآلئ**) فهـــى من المـاديات ، وشبهها بعقدة الحبل صراح .

وقال الاقدمون (**عقدت لـه الرئاسة فى قومه**) أى جعلت له . وأحسبها مأخوذة مـــن قولهم (**عقد له على الجيش**) لانهم كانوا (يعقدوان راية) لمن يولونه القيادة، ومن عقد الراية اشتق اسم (**العقيد**) فى الجيش .

وقالوا انه (عقد قلبه على الامر .. أو على حب فلانة) بمعنى تمسك به بمجامع نفسه . وقالوا : انه (**يعتقـد الامر**) ، بمعنى يعقد قلبه وضميره عليه ويلزم به نفسه أى يؤمن به . ومن هنا جاء (**الاعتقاد**) بمعنى الايمان ، ثم (**العقيدة**) و (**المعتقد**) . واشتق المحدثون من ذلـــك (**العقائدية**) .

ولما كانت صيغة التفعيل تعنى المبالغة فقـد صار (**التعقيد** فى الموضوع) يعنى كثـــرة العقد فيـــه ، أى صعوبته وتعسر فهمه ، فهو (**معقد**) .

و (**العقاد**) صيغة المبالغة من اسم الفاعل ـ تعنى الشخص الذى يكثر من (**العقد**) ، وقد أطلقت على صانع الخيطان والاهداب تزين بها الثياب والستائر واشباهها.

وصرنا فى هـــذا العصر نتحدث عـــن (**العقدة العصبيـــة**) ، أو (**العقـدة النفسية**) ترجمة لكلمـــة complex.. .. مثل (**عقدة اوديب**) .. وبوسعنـا ان نقول قياسا على ذلك : (**عقدة قابيل**) و (**عقدة ماكبث**)، (**عقدة أشعب**) ، و (**عقدة السندباد**) ـ شهوة الاسفار، و (**عقدة الحطيئة**) ـ النزوع الى الهجـو .. الى آخر ما هنالك من عقد زادت حياة الاولـين والآخرين **تعقيدا على تعقيد** .

ونقول (**انعقدت**) **الجلسة** للنظر فى أحكام المعاهدة (**المنعقدة**) بتاريخ كـــذا .. أو للنظر فى اعادة طبـع (**العقد الفريد**) .

* * *

الى جانب هذه الاربطة الثقافية تـــوجد الفـــاظ (**اجتماعية**) أصلها حبال ، والفاظ (**ثقافية**) أصلهـا هنات حيوانية أو مواد خسيسة أخرى ، نذكر بعضها فيما يلى على سبيل المثال : (1)

---

(1) عندما القى البحث على شكل محاضرة حذفت منه بعض الفقرات مراعـاة للوقت والتخفيـف . وقد أعيدت اليه هنا واضيفت بعض النقاط المهمة ومنهـا الامثلة التالية :

السبب (وزان الذهب) :

معناها معروف . وهو فى الاصل الحبل ، تطور فصار يعنى الوسيلة أول الامر ، لان الحبل هو واسطة استخراج الماء بالدلو من البئر .

كان المادح يقول لممدوحه : (سببى اليك حاجتى .. أو كرمك) ، والمعنى : وسيلتى اليك . وكثيرا ما يقال للمسترفد عند قدومه على أحد الكرماء مستعطيا : **(هل عندك سبب اليه** ، يا أخا العرب ؟) فيقول : (أجل ، أبيات قلتها) .. وكانهم سألوه : (هل عندك حبل تصل به الى قمر كرمه) ؟ فيقول : (أجل ، ان قصيدتى هى حبلى الذى استخرج به المال من خزانته) .

وقديما شبهوا المدح بالمتح اى استخراج الماء بالدلو ، وما عبثا فعلوا ذلك فالشبه واضح . ولعل كلمة (المدح) متطورة من (المتح) . فان صح هذا فقد كان أول استعمال المدح فى العربية بمعنى الاستعطاء بواسطة الشعر ، كالمتح بواسطة الحبل ، ثم انتقل المعنى الى الاطراء والمداهنة لانهما قوام شعر الاستعطاء .

ومن **(السبب)** بمعنى الوسيلة اشتق **(التسبب)** اى التوسل بذريعة ما فقالوا (يتسبب) بمعنى يطلب الرزق اى يلتمس وسيلة لكسب المال . ويقال اليوم (متسبب) بمعنى الكاسب ، وهو فوق الكادح ودون التاجر .

ثم تطور معنى السبب من الوسيلة فصار يعنى الطريق . وربما كانت لفظة (السبيل) مشتقة من (السبب) باضافة اللام . يدل على هذا ان اللام أضيفت الى **(السب)** ايضا ، أى الشتم ، وهى من نفس مادة (السبب) فقالوا (يسبله) بمعنى (يسبه) .

وقالوا : (تقطعت به الاسباب) اى الحبال ، أو الصلات ، أو الوسائل ، او السبل .

ومن كثرة استعمال السبب بمعنى الوسيلة وقع فى الوهم أن معناه العلة ـ ومعنى الوسيلة قريب من معنى العلة على كل حال ـ كقولك مثلا ان المديح سبب العطاء ، تعنى واسطته .. فيظن السامع أنه علته .

وبقيت الكلمة تستعمل بهذين المعنيين (الوساطة والعلة) فى الجاهلية والاسلام ، حتى تحضنت القوم و **(اخذوا بأسباب المدنية** والعلم) فارتفع شأن هذه اللفظة ، وطفرت فى مرحلة التطور طفرة كبرى فدخلت ميدان الثقافة والفكر .. واستعملها النحاة فى مثل قولهم **(الفاء السببية)** . واستعمل العروضيون **(السبب)** بمعنى الحرفين المتحركين ، أو الحرف المتحرك يليه ساكن . ثم دخلت الكلمة حرم المنطق والفلسفة فدارت حولها المجادلات وثارت الخصومات ، وما زال شأنها حتى اليوم عظيما . وما هى فى أول نشأتها الا قطعة حبل ، يربط بها دلو .

الاطناب (وزان الاصلاح) :

معناه الاسهاب والاطالة . أصله فيما يبدو من **(الطنب)** ـ وزان الكتب جمع الكتاب ـ وهو الحبل الطويل يشد به السرادق والخيمة . واستعير المعنى لكل شىء طويل ، فقالوا (طنب) الفرس ـ وزان علم يعلم ـ أى طال ظهره ورجلاه . وقالوا (أطنبت الخيل، أو الابل) اذا تبع بعضها بعضا ، كانهم يشبهونها بالحبل الممتد . والاطناب فى المقال أو الخطاب من العيوب البلاغية .

العدالة (وزان الجهالة) :

الغريب أن **العدل** يعنى الجور . لان قولك **(عدل فلان عن الطريق)** ما زال يعنى أنه جار ، أى انحرف عنه . وقولك **(عدل عن رأيه)** يعنى انه رجع ، أى نكل عنه .

ويخيل لى أن اكتساب هذه الكلمة الجائرة معنى الاقساط والحكم بالحق قد جاء من قولهم **(عادله على الدابة)** أى ركب معه عليها فى الجانب الثانى من المحمل . وكل من الراكبين يسمى **عديلا** . ونحن نسمى من يتزوجان الاختين **(عديلين)** تشبيها لهما بالراكبين (المتعادلين) على الدابة . ذلك أن ركوب المرء وحده على جانب المحمل يجعله **(يعدل)** اى يميل ، فاذا ركب شخص آخر فى الجانب الثانى **(عادله)** أى وازنه . ومن هنا صارت الغرارة تسمى **(العدل)** ـ وزان الذئب ـ لان الغرارتين تحمل كل منهما على جانب من الدابة لتتعادلا .

وبعد أن وصلت اللفظة هذه المرحلة من التطور ـ أى التوازن والتعادل ـ أصبح من السهل عليها أن ترتقى فى معارج الرفعة فتعنى **(العدل)** ـ وزان الفضل ـ أى المساواة ، و **(العدالة)** اى القضاء .

و (الكاتب العدل) معروف . وأما **(الاعتدال)** فهو القصد نقيض التطرف ، وقد عدوه من الفضائل ، بل رأس الفضائل . وأما **(اعتدال القوام)** فما أحسنه وما أكثر ما تغنى به الشعراء وغير الشعراء من الناس . و **(المعادلة الجبرية)** يعرفها طلاب الرياضيات .

وهكذا تفترق هاتان الاختان (العدل والجور)

وتختلف طريقهما فى مدارج الحياة ، فصارت احداهما تعنى النصفة والثانية تعنى الظلم . وكذلك الناس .

الفضيلة (وزان الخميلة) :

هى البر والمكرمة ، وهى أحسن ما يتصف بـه الانسان ، وهى غاية التربية التى طالما تحدث عنهـا الفلاسفة من قديم الزمان .

أصل الكلمة من فعل (**فضـل يفضـل**) – وزان كتب يكتب ، أو علم يعلم – بمعنى زاد وبقيت منه بقية . و (**الفضلة**) هى الزيادة ، ومنهـا (**فضلة الزاد**) . ويبدو لى أن فضلة الزاد هذه هى أصل اشتقاق المكارم من هذه الكلمة . فلا بد أنهم قالوا قديما (**تفضل عليه**) بمعنى أعطاه (**فضلة**) **طعامه** . وتقول المعاجم ان معنى (**تفضل عليه**) هو : أنالـه من **فضله** .. والاصح عندى .. من فضلته ، والفضل هو الفضلة على كل حال . واذا قال المستعطى : (**تفضل على**) أو (**اعطنى مـن فضلك**) فهو يقصد : اعطنى ما (**فضل من طعامك**) أو(**ما فضل عن حاجتك من مالك**) . ولما كان البخيل يضن **بالفضلات** فقد صار بذلها علامة الكرم . والمثالية العربية عـدت البذل سيد المكارم لكثرة تعرض الانسان العـربى فى جزيرته القاحلة للحاجة الى العون من طعـام وشراب ، لذلك كان البخل فى مفهومهم واللؤم شيئا واحدا ، وما عبثا صار (**الكرم**) يعنى عندهم السخاء والنبـل فى وقت واحد . فطبيعى اذن ان يصبح (التفضل) – الذى صار بالتدريج يعنى البذل والجود – سيد المكارم ، ثم يشمل معناه جميع المكارم .. أى (الفضائل) . والعادة اذا تطور معنى الكلمة ان يتعايش المفهومان : القديـم والجديد ، أمدا قد يطول وقد يقصر . وبعض المعانـى القديمة الام ما زالت تواكب أولادها من المعانى المستحدثة منذ العهود الجاهلية حتى يومنا هذا . ومن أمثلة ذلك كلمتنا التى بين أيدينا الآن – (**الفضل**) فهى ما زالت تحتفظ بمعنييها كليهما : الزيادة والمكرمة . فمن معنى الزيادة ما زلنـا نقـول (الفضلة) – وزن النملة – و (**الفضالة**) – وزان السلالة – و (**الفضـول**) وزان النزول . وأما (**الفضول**) فهو الذى يتدخل فيما لا يعنيه، وأصل المعنى من يهتم بالزوائد و (الفضول) . ومن معنى المكرمة : (**الفضل**) اى العلم ، وأصل معناها الاحسان ، وكلمة (**الفاضل**) اكتسبت معنى العالم الى جانب الكريم، وكذلك (**المفضال**) . و (**الفضيلة**) نقيض الرذيلة .

التدبير (وزان التقديم) :

يعنى التفكر والتأمل . و (**تدبر الامر**) تمحيصـه ودرسه ، و (**تدبيره**) تهييئه وتنظيمه . يقال (**نحـن فى التدبير والله فى التقدير**) .

واصل الكلمة من (**الدبر**) – وزان الشكر – وهـو من الانسان او الحيوان عجزه ، ومن كل شىء آخره . ومن الدبر اشتق فعل (**أدبر**) بمعنى ادار دبره ، أى انصرف ، و (استدبرهم) بمعنى أولاهم ، أو أدار لهم دبره – ضد استقبلهم .

و (التدبير) جاء من قولهـم (**دبر الامر**) وكانوا قصدوا حسب حساب دبره ، أى عاقبته . لذلك قالت بعض المعاجم ان (**التدبير**) **هو النظر فى (أدبار الامر)** .

وقد كنا ارتأينـا ان (الورود) و (الايـراد) .. مشتقتان من الدبر ايضا بعد قلب وابدال ، وأوضحنا ذلك فى بحثنا السابق (**آثـار حيوانية – فى اللغـة العربية**) الذى سلفت الاشارة اليه .

الفصاحـة :

هى وضوح الكلام وخلوه من الغمـوض . والرجل (**الفصيح**) هو المنطيق (**المفصح**) اى المبين . ثم صارت (**الفصاحة**) تعنى البلاغة ، و (**الفصيح**) البليغ .

أصلها من (**فصح اللبن**) من وزن ظهـر يظهـر ومعنـاها – اى بان بعد أخذ رغوتـه . و (**فصـح**) بتشديد الصاد – ذهبت رغوته . ويبدو انه كان لظهور اللبن من تحت رغـوته أهمية خاصة عنـد العـرب فاستعملوا الكلمة الدالة عليه بمعنى الظهـور والبيان لكل شىء . ومن ذلك قولهم (**صرح اللبن**) – بتشديد الراء – بمعنى ظهر أيضا فهو صريح . ثـم استعيرت (الصراحة) للجهر بالراى .

وقالوا (**النهار المفصح**) بمعنى الصافى الخالى من الغيم ، كأنهم يشبهونه باللبن صفا وخلص من الرغوة .

ثم استعارت العرب مادة (ف ص ح) (**للفصح**) – وزان الفتح – و (**الافصاح**) – وزان الاجلال – لمعنى الايضاح والافهام ، فقـالوا (**فصـح الاعجمى**) – وزان ذهب – أى تكلم العربية لانهـم يفهمونها ، و (**فصـح الصبى**) بمعنى حسن منطقه ، و (**أفصح الفرس**) بمعنى صفا صهيله ، و (**أفصح الرجـل** بمعنى ظهر ضوؤه ، و (**أفصح الرجل عن مراده**) بمعنى أعرب عنه وأبانه . ومن كل هذا **استعيرت الفصاحة للواضح الجيد مـن الكـلام** .

الجزالة (وزان الغزالة) :

هى الجودة على العموم . وقد خصوا الاسلوب أو

البيان من شعر ونثر **(بالجزالة)** ، فهو **(جزل)** ـ وزان الفضل ـ أى متين التركيب فصيح اللفظ حسن المعنى ، أو نحو ذلك .

وأصل معنى الجزالة هو الغلظ والعظم (وزان الهمم) . والظاهر أن الغلظ هو الاصل ، وهو الخشونة والخلو من الاناقة والتصفيف ، لذلك قيل : (جزالة البداوة) أى بساطة التركيب وخشونته ومتانته . ثم أطلقوا الكلمة على الكرم والكثرة فى العطاء ، وفى كل شىء . فقيل مثلا : (أجزل له العطاء) أى كثره ، و (لكم الشكر الجزيل) .

الرياضة :

علوم الحساب والهندسة والجبر والمثلثات وامثالها تسمى كلها **(الرياضة)** أو **(الرياضيات)** . وتطلق الرياضة كذلك على الحركات البدنية التى يراد بها تقوية الجسم . وقد استعار المتصوفة **(الرياضة)** لتهذيب النفس بتعويدها المشقات من زهد وحرمان تشبيها لها بمشقة (الرياضة البدنية) . وفى الدارجة العراقية يستعملون **(الرياضة)** بمعنى المحنة أحيانا .

وأصل المعنى من **(رياضة المهر ، أو ترويضه)** أى تدريبه وتعويده السير وفق مرام الراكب . ومنه **(ترويض الوحوش)** أى تذليلها وتعويدها الطاعة وأداء ألعاب وحركات .

الرسم (وزان النجم) :

هو التخطيط والتصوير . ويعنى كذلك التنصيب أى **(الترسيم)** فى المنصب ، وغالبا ما تستعمل فى الرتب الكنسية .

والمعنى الجاهلى للكلمة هو ذهاب الشىء وبقاء أثره ، مثل قولهم ان **(المطر رسم الديار)** أى محاها وأبقى أثرها على الارض . ثم صار الرسم يعنى الاثر نفسه مثل **(رسوم الديار)** أى آثارها . والظاهر أن أصل المعنى من قولهم ان **(البعير يرسم)** اى يترك سيره أثرا على الارض ، فهو **(رسوم)** وزان رسول .

واصبح أثر السير هذا يعنى الخط فقيل **(رسمت الثوب)** ـ بالتشديد ـ بمعنى خططته ، أى جعلت فيه **(رسوما)** وخطوطا . ومن التخطيط تطور المعنى فصار **(الرسم)** يعنى التصوير ، و **(الرسام)** المصور بيده ، لا بالآلة .

واشتق المتأخرون (المرسوم) وهو ما كان يصدره الولاة والسلاطين من الاوامر بمعنى (الفرمان) وصارت بعض الاقطار العربية تستعمله بهذا المعنى فتقول **(المرسوم الملكى)** وفى الجمهوريات (المرسوم الجمهورى). وبعض الاقطار العربية تستعمل **(المراسيم)** بمعنى الآداب والسنن المتبعة فى المناسبات **(الرسمية)** من حفلات واستقبالات ، بدلا من تعبير (التشريفات) الذى يستعمله بعض آخر منها . وكل هذا أصله أثر خف البعير على الارض عند سيره .

السياسة :

معروف أمرها . أصلها من **(ساس الدواب)** أى قام على أمرها ، والفاعل **(السائس)** . ولما أخذت الكلمة معنى **(سياسة الناس)** وتدبير أمورهم صار الفاعل يسمى **(السياسى)** نسبة الى المصدر ، بدلا من **(السائس)** الذى ما زال يعنى مدبر أمور الخيل .

الاسهاب (وزان الاطناب) :

فى الكتابة والقول هو الاطالة ، عكس الاختصار . وأصل المعنى من **(أسهب الفرس)** أى اتسع خطوه وأمعن فى السير .

الجبر (وزان الصبر) :

هو العلم الرياضى المعروف . أصل معناه من **(جبر العظم)** اى معالجته من الكسر . وقد استعيرت فى علم الحساب أيضا بنفس المنحى فقيل **(جبر الكسور)** بمعنى اعادتها الى أعداد صحيحة . و **(التعدد الجبرى)** ضد العدد الكسرى .

اليراع (وزان السماع) :

لفظة أدبية حسنة الوقع فى السمع يظنها القارىء نوعا راقيا من الاقلام ، وما هى الا القصب العادى ، أو مزمار الراعى المصنوع من القصب . ذلك بأن القوم كانوا يكتبون بالقصب فأطلقوا اسمه على القلم ، كما كان الاوربيون يكتبون **بالريشة فاطلقوا** اسمها على القلم مثل (plume) الفرنسية من (pluma) اللاتينية ، و (pen) الانكليزية من (penna) اللاتينية أيضا . وكلتا الكلمتين اللاتينيتين تعنى **الريشة** . وقد تأثرنا نحن بالريشة من بعيد فصرنا نقول بغير داع ان الصورة **(بريشة فلان)** تقليدا للاوربيين مع أننا لم نستعمل الريشة للكتابة ولا للرسم . على أن الرسم لا يكون بالريشة حتى عند الاوربيين ، بل بالفرشاة ، فالاصح ان يقال ان **الصورة**

(**بفرشاة**) **فلان** . ومعروف ان السيد خروشيف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي (السابق) حين رأى بعض صور المدارس الحديثة في الرسم قال : كأنها **مرسومة بذيل حمار** . فاذا أخذنا بهذا المذهب يمكننا بدلا من القول عن الصورة من هذا النوع انها **مرسومة بريشة** فلان ، ان نقول : انها **مرسومة بذيل حمار فلان** .

كذلك القلم :

ويقابلها باللاتينية (calamus) وفي الاغريقية (kalamos) واصل معناها القصب .

كذلك المجلد (وزان المهند) :

فهو من (**جلد**) الحيوان ، لان الكتب كان غلافها يصنع من الجلد . و (**تجليد**) الكتاب كان يعنى تغليفه بالجلد . أما الآن فقلما يستعمل الجلد في (**التجليد**) وانما الاغلب استعمال انواع مخصوصة من الورق أو اللدائن ، ولكننا ما نزال نسمح التغليف بهذه المواد **تجليدا** .

والورق (وزان الشجر) :

هو الكاغد الذي يكتب عليه ، وهو مقتبس من (**ورق الشجر**) ، لان العرب حين عرفت الورق لم تجد شيئا تشبهه به أصلح من ورق الشجرة لتسطحه وقلة سمكه . وكذلك فعل أهل فارس اذ سموه (**برك**) – وزان البرق – وهو ورق الشجر أيضا . وظاهر ان (**ورق**) العربية و (**برك**) الفارسية كلمة واحدة في الاصل اختلف نطقها قليلا لدى الامتين ، وظل معناهما متفقا .

والثقافة :

من (**التثقيف**) وهو تقويم المعوج من الرماح والقصب وتسويته . ونجم من هذا المعنى (**تثقيف الغلام**) أي تهذيبه وتقويم سلوكه . ثم صار (**التثقيف**) يعنى الحذق وسرعة الفهم . وتحدد المعنى اخيرا في عصرنا فأصبح خاصا بالعلم والفقاهة في المعرفة .

والدرس (وزان الغرس) :

هو التمحيص والفهم . ومنه اشتق (**التدريس**) و (**المدرسة**) وما الى ذلك . أصله من فعل (**درس درسا**) – وزان أكل أكلا – بمعنى اندثر وانمحى ، ومن ذلك **الآثار الدوارس ، أو الدراسة. او المندرسة** أي المنطمسة، و (**الثوب الدارس**) أي البالي . ومنه (**درس سنابل القمح**) بالنورج أي ابلاؤها وتهريتها لكي يسهل خروج حبات القمح منها .

ومنه (**درس الكتاب**) أي استخراج ما فيه من العلم. والعرب ميالون فيما يبدو الى العنف في معنى التفهم ، فما اكتفوا بالدرس من معنى السحق والابلاء بل تزيدوا فأضافوا القتل فقالوا «**قتلوا الامر خبرا**» أو «**قتلوا الموضوع درسا**» .

* * *

كان العرب أمة شديدة الحيوية عظيمة القدرة على التكيف والتطور السريع حيثما تاحت لها فرصة للتمدن والارتفاع . وقد ظهر هذا منذ سحيق الدهور كلما اندفعت موجة بدوية من الجزيرة العربية الى أحد الاقطار المجاورة ، من ارميين وكنعانيين واكديين وغيرهم من قبلهم . ويتضح هذا على الاخص عند اندفاق الموجة الاسلامية الكبيرة من تلك الصحراء .

هذه الحيوية الفارطة سرت من العرب الى لغتهم . وبتعبير علمي : ان العرب تركوا أثرا واضحا من هذه الحيوية الفارطة في لغتهم . فكلما قطع البدوي شوطا من مرحلة الحياة اصطحب معه الفاظه الصحراوية واشتق من أسماء حيواناته وأدواته البسيطة الساذجة ألفاظا جديدة للتعبير عن المعاني والافكار الحضارية الدقيقة : فلسفية وعلمية وصناعية وفنية وغيرها . وقد رأينا شيئا قليلا من ذلك فيما تقدم بنا من القول .

ان التأمل في بعض الالفاظ والتعابير العربية – الكثير منها – يكشف لنا بجلاء مبين ما خلفته حياتهم الاجتماعية والاقتصادية من آثار ناطقة في لغتهم بحيث أصبح بالامكان من خلال هذه اللغة أن ندرس نواحي من تاريخهم وعاداتهم واخلاقهم ، عفى الزمن عليها منذ آماد بعيدة فضيعها التاريخ ولم يعد بيدنا مصدر غير اللغة يعيننا على تفهمها . بل اني أصبحت أومن بأننا اذا اردنا **دراسة** هذه النواحي من حياة القوم ، حتى في العهود التاريخية المعروفة ، دراسة واعية متقنة كان من المفيد جدا في ذلك تمحيص لغتهم وتعرف ما طرأ على ألفاظها ومعانيها من تطورات خطيرة ممتعة . ولئن كان الكثير من شعرهم ونثرهم يمكن الطعن في صحته لكثرة ما لفق الرواة منه واختلقوه فان الالفاظ ومعانيها – مما وعته لنا **المعاجم** والموسوعات وما يمكن أن نستخلصه منها عن كيفية نشوء تلك المعاني والالفاظ وتطورها – لشواهد صدق

وادلة هداية فى عمايات التاريخ الجاهلى المنطمس البعيد .

ان لمعظم الالفاظ العربية معانى شتى فى القاموس، منها الحقيقى ومنها المجازى . وهى بطبيعة الحال غير مرتبة فى المعاجم ترتيبا زمنيا يرينا ايها قديم وايها حديث ، وايها استحدث من الآخر ، وكيف استحدث هذا من ذاك . ولكن المتأمل المدقق لا يصعب عليه أن يستعين بالمنطق فى استنباط ذلك ـ بانضباط فى بعض الاحوال وبالتقريب والتخمين فى أحوال أخرى ـ فيهتدى عن هذا الطريق الى تعقيب خط السير الذى سلكته الكلمة فى تطورها وتقمصها مختلف المعاني فى مختلف الاجيال والبيئات .. كالذى رأينا فى : **الجمال ، والاناقة** (1)، و **العقل** ، و **الرسم** ، وامثالها من ألفاظ دلتنا على بعض المعروف والمجهول من سجايا القوم ومعاييرهم الاجتماعية. وان **لبعض الالفاظ من الطاقة الكشفية تمزق الحقائق للمؤرخ ما يضعها فى مرتبة اللقى الاثرية عند المنقب** .

يقول شرلوك هولمز ان الانسان اذا استعمل أداة مدة من الزمن ترك عليها آثارا من طباعه وأخلاقه وسيرته ، وان بالامكان التعرف على الكثير من ذلك بمجرد فحص تلك الاداة فحصا واعيا فاهما . ولست أذكر نص كلام شرلوك هولمز فقد كنت قرأت فى أيام الحداثة شيئا بهذا المعنى فى احدى قصص (كونان دويل) . ولكنى اجد هذا الآن ينطبق انطباقا رائعا على اللغة ، فهى **(أداة) اجتماعية** تستعملها امة مدى أجيال وتترك فيها آثارا صادقة الدلالة اكيدة الفائدة ، اذا نحن أحسنا فحصها وتعمقنا فى تحليلها . ولعل هذا أصدق على اللغة العربية العريقة الواسعة العميقة ، بالذات .

لهذا أعتقد انه يجب دراسة لغتنا هذه فى تاريخها المديد الفسيح الارجاء ، من مختلف نواحيها العديدة ، لا من ناحية صلتها بالبهائم والاربطة فقط .

هذا مجرد استلفات للنظر الى موضوع اثيره وادعو أصحابه من المتخصصين فى التاريخ والاجتماع وعلم النفس واضرابهم من الباحثين المعنيين ، لان اللغة قد لابست هذه العلوم وغيرها ملابسة شديدة معقدة شائقة .

ولا شك انه كذلك من واجب اللغويين الذين كان اكثرهم منذ القدم يقضون أعمارهم فى حفظ اكبر عدد تستوعبه أدمغتهم من الالفاظ الآبدة ، يباهون بذلك ويجادل بعضهم بعضا فى المجالس والمجامع ، ليبكتوا الخصوم او ينالوا الجوائز .. لا يعنى اكثرهم بتقليب مفردات اللغة الا تقليبا سطحيا . واذا خطر لهم أن يتفهموا العلاقة بين بعضها وبعضها فمن ناحية الشكل والظاهر .. ليقولوا هذا خطأ وهذا صواب ، خبط عشواء ، فى عناد ومكابرة فى كثير من الاحيان ـ كالذى يظهر من بعض ما تركوا من مساجلات ومهاترات لغوية ـ حتى جعلوا كل خطأ صوابا وكل صواب خطأ ، فأحدثوا فى اللغة من البلبلة والاضطراب، عمدا وعفوا ، ما يكاد يتعذر تلافيه .

أما الافذاذ من القدامى الذين حاولوا ان يتعمقوا فى درس اللغة ويفلسفوها فلم يؤخذوا عند جمهرة اللغويين والنحويين مأخذ الجد فغمرهم الاهمال والنسيان .

ان ركب اللغة يسير فى تطوره الاجتماعى الدائب غير عابئ بخطأ القاموسيين وصوابهم ، وان الالفاظ والمصطلحات تتغير معانيها ومبانيها ، ويصارع بعضها بعضا ، ويموت بعضها ويولد بعضها ، وفقا لقوانين اجتماعية دقيقة ، دون أن يستأذنهم احد او جيل فى صياغة كلمة جديدة ، أو القاء كلمة قديمة او جديدة فى سلة النفايات ، وقد بدأ العرب اليوم يجددون حاجاتهم فغدوا يتصرفون فى لغتهم وفق حاجاتهم لا وفق حاجات أجدادهم واجداد اجداد اجدادهم ، ويتكلمون بلغتهم هم لا بلغة المعاجم .

ان المعجم يجهزنا بالمادة التى تصلح لدرس اللغة القديمة والمادة التى تصلح لصنع لغة جديدة منها . **فاللغة ليست نهائية كأحكام الصلاة وشعائر الحج ، ولم تكن نهائية فى يوم من الايام** .. كما يريدها المعجميون دائما . وان الامم المتمدنة اليوم تعيد طبع معاجمها كل بضعة أعوام ، واذا كل طبعة لا تخلو من معان جديدة لبعض الالفاظ وألفاظ جديدة لبعض المعانى . وان ما تجلى لاعيننا فى بحثنا هذا وحده من تطور الالفاظ والمعانى فى لغتنا ـ حتى فى جاهليتها ـ لعبرة لقوم يربطون ، أعنى **يعقلون** !

لقد أخذ الاساتذة اللغويون أخيرا بدرس اللغة على

---

(1) من مقالنا السابق (آثار حيوانية فى اللغة العربية) .

نحو عصري جديد مفيد ، وأعتقد أنه آن لنا أيضا أن نفعل بالمفردات اللغوية ما يفعل المنقبون بالآثار القديمة يستنبطون منها التاريخ ويتفهمون المدنيات .

وان في المعاجم والموسوعات الزاخرة بالمفردات لمعينا لا ينضب من المادة الغفل لمن اراد درسا وتتبعا . لقد انقضى دور الجمع والتدوين منذ عصور كما نعلم ، وقد أدى الاقدمون واجبهم فيه على خير ما استطاعوا ، فلهم منا الشكر والثناء .. وقد حان اليوم ، بل منذ عهد بعيد ، دور الغربلة والتمحيص والاستخلاص . بل ان بعض القدامى قد فعلوا من ذلك ما يستحق الاعجاب ، وقد جاء بعضهم بنظريات في علم اللغة رائعة لم يتوصل اليها الغربيون الا اخيرا . ولكن انهيار الحضارة العربية الاسلامية في المشرق والمغرب بسبب الغزو الاجنبي قضى على تلك الحركة العلمية الحضارية الصاخبة الفياضة فانقطع تيار البحث العلمي المتدفق ذلك وبقي نشاط أولئك الرواد اللغويين مبتورا ناقصا لم يتيسر له الاستمرار والنماء .

ومتى أنجز اللغويون المحدثون هذه البحوث كانت لاساتذة التاريخ والاجتماع مصادر غنية تعينهم على استنباط العادات والاخلاق والمثل ، ولا سيما ما اندثر منها ولم يعد لنا من المصادر الباقية ما يدلنا عليه غير هذه **الآثار اللغوية** .. او تعينهم على مقابلة ما لديهم من مصادر التاريخ مع ما لديهم من مصادر اللغة – وما أحسب هذا او ذاك من نوافل الامور .

وبتعبير آخر : لقد آن أوان **(التنقيبات القاموسية)** بحثا عن **(الآثار اللغوية)** ..

عبد الحق فاضل

ولما كانت مرحلة الترجمة في أكثر النهضات الفكرية متقدمة على مرحلة الابداع كان قيام هؤلاء المترجمين بنقل الكتب الفلسفية الى اللغة العربية تمهيدا لاطلاق الأفكار من قيودها ، ولحملها على الانتاج الفلسفي المبتكر ، شأنهم في ذلك شان المترجمين في العصر العباسي ، الذين مهدوا السبيل لانتاج الفارابي وابن سينا وافزالي ، ولو لم نقف الا على هذه التراجم الدقيقة في نهضتنا الفكرية الحديثة لوجدناها مجزئة ومغنية ، بل لوجدناها في هذه المرحلة فاضلة على الكفاية ، فكيف بنا وقد قطعنا الآن مرحلة النقل والاتباع ، وتجاوزناها قليلا أو كثيرا الى مرحلة الابتكار والابداع ؟

للاستاذ جميل صليبا